الفصل الثانى

« شعر الجمال »

(١) الجمال البشرى

عبادة الجمال : تغنى التيجانى بالجمال البشرى ، وكان حبه لهذا الجمال ذا أثر بالغ على حياته وعلى فنه ، فقد ملك عليه قلبه ، واستولى على عقله وحسه

وتحرقت فى الهوى والصبابا ت وألهبت فى المزاهر لحنى
والجمال الحبيب يعلم كم ألهبت فكرى أسى وأسهرت جفنى

بل لقد بلغ حب الجمال الإنسانى عنده حد العبادة . وكأنه - كما يقول هو - قد جعل بين أنفاسه والحب عروة لا تنفصم ، فهذه الأنفاس التى تتردد فى هيكله وتتوقف عليها حياته ، ويقوم عليها كيانه ، إنما نسج منها حبه ، وصاغ منها غرامه . فصار انتزاع الروح من جسده ، كانتزاع الحب من قلبه :

وعبدناك ياجمال وصغنا لك أنفاسنا هياما وحبا

والجمال عنده سر مغلق ولغز عويص ، بذل الشاعر كل ما فى وسعه ليفهمه وليدرك قوته النافذة فى القلوب ، الطاغية على النفوس فما يزداد إلا بعدا ، وما يزداد لغز الجمال إلا تعقدا . يتسرب إلى نفسه فيطغى عليها ، فاذا تأمله وجده على قربه بعيد المعنى عسير التفسير :

وحبونـاك ما يزيدك يالغـز وضوحا وأنت تفتأ صعبا
وذهبنا بما يفسر معنـاك بعيـدا وأنت أكثر قربا

وعجيب أمر هذا الجمال ، تدركه على وجوده الحسان مختلف المظاهر متعدد الصور ، يسرى إلى القلوب فى خفاء كأنه السحر ، ويلقى بفعله فى الروع كأنه الفتنة . فمن ذا الذى وزع هذه المفاتن ، وعلم القلوب الحب :

من ترى وزع المفاتن يا حســـــن ومن ذا أوحى لنا أن نحبا
من ترى علم القلوب هوى الحســـــن وقال اعبدى من السحر ربا

من ترى صنع ذلك كله ، لاشك أن صانعه قوة هائلة جبارة . إنه الله صانع القلوب التى يغمرها الجمال ويغرقها الحسن وتطغى عليها المفاتن :

إنه صانع القلوب التى تنصـــــب فى قالب المحاسن صبا

وما عبد الشاعر الجمال إلا بعد أن وقع فى نفسه الموقع الذى لاغاية بعده ، ولا أدل على ذلك من صيحاته الملتهبة التى يتجه بها إلى طاير الشباب يسأله : من أين لك هذا الجمال الذى يشبه قطعا مذابة من نور الصباح أو شعاع الشمس . يُطرب من نظر إليه ، ويبعث فيه النشوة كما تبعث الأنغام الحلوة الطرب والنشوة فى النفوس . فكأن للحسن أوتارا ترسل أنغامها ، وتبث الشجو فى قلوب المحبين . فمن أين جاءته هذه القوة التى بثت فى أوتاره هذه الأنغام الشاجية :

ياطاير الشـباب من صـاغ هذا الحسن فى زهوه وفى استكباره
من أذاب الضـياء فيه ومن نغم شجو الهوى على أوتاره

ثم تتوالى صرخات الشاعر ، وتبلغ حيرته أشدها ، ويصل انفعاله بهذا الحسن ذروته ، فإذا به يسأل ويلحّ فى الأسئلة ، ويصوغ أسئلته

قصيرة متتابعة تنم على قلق ممض ، وحيرة شديدة وتلهف بالغ :

من رمى؟ من أصاب؟ من صور الفتـــــنة ؟ من زرها على أزراره
والفتور الذى بعينيك من موّ ه سحر الحياة فى أقطاره

ثم ينتهى إلى ما انتهى إليه فى الأبيات البائية السابقة . لايكاد يحس بأثر الجمال على قلبه المصاب حتى يبحث عن الذى رمى قلبه وأصابه ، وصور الفتنة ، وركزها فيه ، فاذا هو قوة هائلة جبارة لايراها ولايسمعها ولا يلمسها ، ويدهش أكبر الدهش كيف يتأتى لها أن تنفذ إلى قلب محجب ، وتتسلل إلى باطن منيع : هو الله الذى صنع الجمال وتولاه . فلم يدعه لصروف الزمن ، تعبث به ، وتغير عليه بل ظل يحرسه ويكلؤه :

صاغ هذا الجمال من لم ينم عنـــــه لصرف الزمان أو أغياره

وهكذا كان يسكن التيجانى إلى الله كلما عرضت له هذه الحيرة ، وينتهى إليه كلما ثار فى نفسه التساؤل عن مصدر الجمال وعلة تأثيره فى النفس .

وهكذا كان ينتهى التيجانى من طريق حبه للجمال البشرى إلى الإيمان بالله . فما أجدر صانع هذا الجمال بأن يُعبَد . بل جدير بنا ـــ أيضا ـــ أن نعبد هذا الجمال لأنه مظهر من مظاهر قدرة الله ، فنتأمل مفاتن الجمال ومحاسنه فى خشوع وخضوع ـــ كما يصنع العابد فى صلاته ـــ تقربا إلى الله وزلفى إليه :

نظرة كالصلاة زلفى إلى الله وقربى لعزه واقتداره

ومهما يلاق هذا القلب من انجذاب ، أو افتتان ، من تعب أو ألم ،

فإنه قلب حر يهيم كما يشاء ، لا تحده حدود ، ولا تقيده قيود ، طليق طلاقة الحياة :

قلب كقلب الحياة بين حنايا الأبد

ولم لا ؟ ونفسه قبس من نور الله ، أو موجة من بحر لجيّ ، تنتقل صافية بين مظاهر الكون ، وتتوزع حرة على مفاتن الوجود :

هى نفسى إشراقة من سماء الله تحبو مع القرون وتبطى
موجة كالسماء تقلع من شط وترسى من الوجود بشط
خلصت للحياة من كل قيد ومشت للزمان فى غير شرط
كلما اهتاجها الحنين استظلت بحبيبين من يهود وقبط

والبيت الأخير ينبهنا إلى أمر جديد ؟ أكان التيجانى حقا يحب بعض الحسان من النصارى واليهود ؟

حبيباته :

فى ديوانه (ص ٤٦) أن دار الشاعر كانت قريبة من حى المسالمة فى أم درمان ، وكان للشاعر فى هذا الحى غدوات وروحات بين حسانه الفاتنات ، ولا أدرى أكان من بينهن حسان من النصارى أحبهن الشاعر أم لا ، ولكن يخيل إلىّ أن الشاعر قد خص فتاة نصرانية بحب عميق . ومن اليسير على من يتصفح ديوانه أن يحكم بأن كثيراً من شعره الغزلى ينطبق على حبيبة بعينها . ففى هذه القصائد والمقطوعات الغزلية ، بل فى معظم شعره الغزلى تسترعى العينان دون سائر الأعضاء انتباهه من بين محاسن محبوبته الحسية فيقول مثلا :

ووهبنا لك الحياة وفجرنا ينابيعها لعينيك قربى

وفى قصيدة أخرى :

عيناك هاتان وقد صيغتا من كبرياء الحسن أو مجده

وفى قصيدة أخرى :

والفتور الذى بعينيك من مو ه سحر الحياة فى أقطاره

ثم أشير للقارىء إلى قصائد أخرى تغزل فيها بعينى محبوبته، يجدها على الصفحات ٢٢ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٧٨ من الديوان .

وهو يصرح بحبه بعض حسان النصارى فى قوله :

وجن بك الهوى فهنا غرير علقت به ومن هنّا حبيب

وتلك وفى معاصمها سوار وذاك وفى ترائبه (صليب)

وقوله :

ولقد تعلم الكنائس كم أنـــــف مدل بها وخد مورد

ولقد تعلم الكنائس كم جفـــــن منضى وكم جمان منضد

وقوله :

آمنت بالحسن برداً وبالصبـــابة ناراً

وبالكنيسة عقداً منضداً من عذارى

إيمان من يعبد الحســـــن فى عيون النصارى

كل هذا يرجح أن الشاعر قد تعلق تعلقا شديداً بفتاة نصرانية ، وربما ألهمته كثيراً من شعره الذى تغنى فيه بنغمات الجمال البشرى ؛ وكان لها أثر كبير فيما نظن ، فى إلهاب شاعرية الشاعر ، ودفعه إلى نزعة صوفية واضحة .

ولقد تعلق التيجانى بفتاة لبنانية ، صاغ فيها شعراً رقيقا عميقاً ، لا يقل رقة وعمقاً عن مقطوعاته السابقة . يخيَّل إلىّ أنها هى فتاته النصرانية التى خصها بحبه ، فلنستمع إليه وهو يوجه إليها هذه الأبيات الرقاق :

يا (هذه) عمرك الله هل سمعت بقيس
فتى يقيم بجنبىّ بين سهم وقوس
رمته ليلى بجنبيك واستعاذت بترس
وأنت يا ابنة لبنا ن تعبثين برأسى
كفاك سحراً وحسبى ما قد رأيت وبسى

والسياق يحتمل أن تكون (هذه) هى الفتاة اللبنانية التى صرح بها فى البيت الرابع . والشاعر هنا مجنون بحب هذه الفتاة ، بل هو بعينه هذا المجنون الذى تروى الأسطورة أنه أحب ليلى العامرية ، تمثل فى شخص الشاعر ، بين سهم وقوس ، رمت بهما الفتاة فاستقرا فى قلبه ؛ أما هى ففى مأمن من أن تصاب بسوء ، لأنها مدرعة بترس منيع هو جمالها وسحرها وفتنتها . ألا كُفى أيتها الحسناء عن هذا السحر النافذ الذى يعبث بعقلى ، ولا يصيبنى منه إلا الجنون والتدله . حسبى ما قد لقيت منك .

هذه الفتاة ومثيلاتها ، قد فتنَّ الشاعر عند ما تحدث عن جمال مدينة الخرطوم فتغنى بحسان الشام وخصهن بالتصريح دون سائر الحسان :

ماج بها الشام ولبنانه والمدن الرائحة الغاديه
طوقها بالحب غلمانه وغيده اللاعبة اللاهيه
أضفى عليها الحبَّ فتانه وزانها بالأعين الزاهيه

والذى نلاحظه أننا لا نجد للتيجانى شعراً صريحاً يقرر انه أحب فتاة من بنى جنسه حبا قويا مسيطراً على نحو حبه للفتاة النصرانية . ولا نكاد نجد فى ديوانه غير قصيدة عنوانها (المصير) يبدو أنه تغنى فيها بحب فتاة ، لعلها سودانية ، يقول فيها :

فيا وداعا حالماً كالملائك تهبط من حجرات الأبد

يرف عليه شباب الفنون وتبرق فى وجنتيه (الفصد)

ومهما يكن فإن حب التيجانى تلك النصرانية قد غلب على كل حب ، وملك عليه شغاف قلبه ، ولعل هذه الظاهرة تؤيد نظرية القائلين بأن الحب يزدهر ، ويقوى ، ويشتد ، حيث وجد التباين والاختلاف بين الجنسين المتحابين ، فى اللون ، وقسمات الوجه ، والطبيعة ، والمكانة الاجتماعية ، والنسب . وتاريخ الحب عند العرب مثلا يؤيد إلى حد كبير هذه النظرية . فقد اشتدت ظاهرة الحب ، وأنتجت نهضة الشعر الغزلى فى صدر الإسلام فى الحجاز ، بعد أن فتح العرب كثيراً من الولايات والأقاليم ، واختلطت الأجناس المختلفة فى هذه البلاد ، ووزعت الجوارى المختلفات الألوان والأجناس والطبائع والمكانات الاجتماعية على الفاتحين ، وبيعت فى الأسواق ، وأهديت كما تهدى الطرف ، وأصبح مجال الاختلاف والتباين واسعاً بيناً بين العرب من جهة وهؤلاء الجوارى على اختلافهن من جهة أخرى ، وأصبح العربى يرى فيما ملكت يمينه الجارية الرومية أو الفارسية أو الهندية أو الشامية . ومن ثم وقع العرب فى حب عميق مع هؤلاء الجوارى ، وتعلقوا بهن تعلقا شديداً ، حتى لاحظ المؤرخون القدماء أن الإماء كن

أكثر حظوة لدى الرجال من الحرائر ، وحاول الجاحظ أن يفسر هذه الظاهرة ، ولكنه أغفل فكرة التباين هذه التى كانت أو لعلها كانت من أسباب تفضيل العربى للجارية وإيثارها على زوجه . وكان العربى يختار زوجه عادة من بنى جنسه ، أو على الأقل كان يختارها من طبقة ومنزلة لا تفترق كثيراً عن طبقته ومنزلته . لهذا كان حبه للجارية أقوى ، وقلبه إليها أميل .

وليس معنى هذا أن الحب مقصور على التباين . بل قد يحب المرء من تقاربه نسبا أو لونا أو طبيعة ، ولكنه لا يصل فى العادة بحبه إلى درجة التدله والعشق والجنون ، لهذا قلنا إن الحب يزدهر ويشتد ويقوى حيث وجد التباين ، ولم نقل مثلا إن الحب لا يوجد ولا ينشأ إلا حيث وجد التباين . ولا يقدح فى صحة هذه النظرية ما رواه القدامى من أخبار مجنون ليلى الذى أحب ابنة عمه ، وهى من بنى جنسه ، وأصيب بالجنون من أجلها . فإن هذه الأخبار قد فرغ القدماء والمحدثون من الشك فى صحة نسبتها إلى هذا المجنون إن كان له وجود تاريخى ، وأوضحوا شكهم بأسباب عدة ليس منها نظرية التباين هذه ، ونحن نضيفها إلى هذه الأسباب كسبب هام يزيد فى تأييد ما ذهبوا إليه . والمجال هنا لا يسمح بالإفاضة فى شرح هذه النظرية وبيان كيف يزدهر الحب على أساس التباين وكيف نوفق بين هذا التباين وبين ما ينبغى أن يكون بين المتحابين من تقارب وتفاهم . حسبنا أن نقرر أن هذه النظرية ربما تؤيد تلك الظاهرة التى رأيناها فى حب التيجانى لهذه الفتاة النصرانية ، ذلك الحب القوى الغلاب .

طفر التيجانى إلى مرحلة أسمى من حب هذه الفتاة أو تلك . تطور

حب التيجانى من حب ضيق الحدود إلى حب أفسح وأوسع . فبعد أن رأيناه يحب هذه الفتاة النصرانية أو تلك اليهودية أو تلك السودانية ، نراه يحب كل ما يمت بصلة إليهن ، ولا تعجب أن ينتهى إلى أن يحب من أجل حبيباته أهلهن ، وأقاربهن ، وبيوتهن ، والطرقات التى تقع فيها بيوتهن ، وألوان الثياب التى يتزين بها ، والأوطان التى ينتمين إليها ، والمعتقدات التى يؤمن بها . بل يحب صوراً أخرى من الجمال لأنها تذكره بجمالهن .

أحب التيجانى من حبيبته عينيها ، ومن أجلهما أحب كل عين حتى صار قلبه نهبا لكل عين فى الدنيا :

تفرعنى الهوى فلكل عين ... تمر على فى الدنيا نصيب

ووصف مدينة الخرطوم وأعجب بما حوته من ألوان الجمال والسحر والفتنة ، ولكنه لم يقف من الأعضاء الحسية إلا عند العيون الساحرة :

مدينة السحر مراح العجب ... ومغتدى أعينه الساحره

بل كل مكان يستوعب هذا الجمال ويصونه ، فهو مكان محبوب لديه معشوق فى نظره ، فهو يؤمن بالكنيسة حين تضم بين جدرانها الحسان ، ويزداد إيمانا بالمسيح حين يطوف حول تمثاله هذه المخلوقات التى صاغها الله حلوة جميلة :

آمنت بالحسن بردا (١) ... وبالصبابة نارا
وبالكنيسة عقدا ... منضداً من عذارى
وبالمسيح ومن طاف ... حوله واستجارا
إيمان من يعبد الحسـ ... ـن فى عيون النصارى!

---

(١) لا نظن أن سكان الجهات الباردة يوافقون الشاعر كثيراً على هذا التعبير !

ومن ثم كان الجمال أمتع شيء لدى التيجانى ومتنفسه فى الحياة ، وما كان أصدق صيحته : رب ما أعظم الجمال وأمجد !

إلى هنا تغنى التيجانى بالجمال البشرى ، وسنرى أنه قد أولع بنوعين من الجمال آخرين ، وفى ظنى أنه لم يصل إلى تذوقهما إلا على أثر تذوقه لهذا الجمال البشرى ، أو نتيجة اتساع (رقعة الحب) فى نفسه .

غزل يسمو على الجسد

على أن غزل التيجانى يتميز بطابع معين ، فقد سبق أن قلنا إن التيجانى قلما يصف الحبيبة وصفا حسيا ، ولم يردد إلا وصف العينين(١). ولكن حتى وصفه للعينين لم يكن مقصوداً لذاته ، بل كان يتطلع دائماً إلى ما وراء العينين من معانٍ مستورة ، وقوى خفية . هو لا يهمه من العينين صفة الدعج أو الحور أو السعة أو غير ذلك مما يقف عنده الشعراء الحسيون، ويعنون به ، ولكنه يرى فيهما عالما أوسع، وحياة أزخر . فيهما زهو وكبرياء ، وفيهما عالم يعج بالسحر ويمتلىء بالقوى الخفية العاتية :

والفتور الذى بعينيك من موّه سحر الحياة فى أقطاره

وفيهما رحاب واسعة يأوى منها المحب حين يتأمل فيها إلى ظل ظليل وهدوء شامل ، وذرى منيع . كانت نفس المحب هائمة ، قلقة ، مسلوبة الراحة فأصبح يستطيع أن يصُدَّ صروف الزمان بهذه المنعة ، وأن يصون جانبه بفعل هذا السحر :

وفى عينيه مستذرى ومأوى لروحى وهى هائمة حريب
أصد بفعل سحرهما الليالى فيمنع جانبى السحر الرهيب

(١) ورد فى شعره غزل بالوجه والجبين والشعر والثغر ولكن قليل نادر .

وهو إذا قال الشعر الرائع فى وصف عينيها إنما يستمده من سحرهما ، ويستلهمه من ذلك الشيطان العاتى الذى يكمن فيهما ، ويستقيه من تلك الراح العذبة التى ينطويان عليها :

أنت يا واهب ألحـــــانى ويا ملهم فنى
إنما أصنع من كرمك صهبائى ودنى
إنما أسحر عينيـــــك بما تسحر منى

وهكذا يتسامى التيجانى فى غزله عن الجسد ، ويسمو إلى تغنى الجمال وأثره على قلبه ، أو أثره على الجميل المحبوب . فالتيجانى فى شعره أبعد الناس عن الأوصاف التى تقف عند الجسد ولا تكاد تتخطاه .

الجمال المضيع :

ومن الطبيعى أن يكون حزن التيجانى شديداً على فقد حبيب أو ما يلاقيه الجمال فى الأرض ، أحيانا ، من عنت الطغاة ، وقسوة غلاظ الحس ؛ حزن يكافىء احتفاله بالجمال وتعلقه به . ولعل أبلغ مثل لذلك قصيدتان ، إحداهما عنوانها (على قبر حبيب) يقول فيها :

هنا جمال الحيـــاة يطوى هنـا عيون الهوى تنام
هنـا سهام القضـاء تشوى وها هنـا طاسة وجام
أصـاب رمّـاحه وأشوى فموجـل الشرب والمـدام
وهـــذه كاسه تروى من خمرها الأرض والرجام

أبيات رائعة تمثل صدق الشاعر وإخلاصه فى رثاء هذا الحبيب الجميل ، وقد ووارى التراب وأصبح جثة هامدة . الذى ووارى التراب

ليس هو الشخص الحبيب ، ولكنه جمال الحياة نفسه ، لأن الشاعر قد أحس أن الحزن الممض قد سلبه الرغبة فى التمتع بالحياة بعده ، فكأنما فقد بفقده كل متعة ولذة . فلن يستمتع بجمال بعد أن فقد الحبيب الذى اجتمعت فيه كل صور الجمال ، وتركزت فيه كل آمال الحب ، انطوى جمال الحياة بفقده ، ونامت عيون الهوى بموته .

والعجيب أن يصوب القضاء سهامه إلى هـــذا الحبيب ، وكان فى الحبيب من السحر ما أغرى هذه السهام أن تعبَّ من هذا الجمال حتى سكرت ، وامتصت آخر ما فى هذا الحبيب من سحر وفتنة ، وتركته جثة هامدة كما يترك الشارب الطاس والكاس ملقيين على الثرى فارغين .

أمَا عَـلِمَ القضاء ، أنه قد أصاب رمَّـاحه ، صانع رماحه ، وهو الحبيب الذى كان يصنع الموت بما له من سحر ويعجل الردى لما فيه من فتنة ، ثم أما درى القضاء أنه قد أصاب بسهامه المسمومة ، من حيث لا يدرى ، هؤلاء العاشقين الذين كانوا يسكرون بسحر جمال الحبيب ، وينتشون بنشوة حبه .

والآن ها هى ذى جثته كالكأس ، لا يشرب من خمرها ، إن كان فيها خمر ، إلا الأرض وحجارة القبر !

أما القصيدة الأخرى فهى قصة مؤثرة لحسناء اسمها قمر ، كانت قد أحبت فتى ، ولكن أهلها آثروا أن يزوجوها من فتى آخر ، له ثروة وغنى ، فجن جنونها ؛ ورآها الشاعر مرة وهى نائمة فى ثوب خلق تحت ظلال الأشجار فى مدينة الخرطوم ، وأحب أن أنقل هنا إلى القارىء

أبياتا منها :

هكذا يا قلب جنّت قمر ... وهى فى أزهرِ ما كان القمر
كالربيع الغضّ وجهٌ نضِرٌ ... وصِباً مثلُ بواكير الزّهَر

* * *

حسبوا. يا نكرَ ما قد حسبوا ... قلبَها الخافِقَ يُشرى ويُباع
وهَبُوها للردى إذ وهبوا ... للفتى اللذة منها والمتاع

* * *

ضَلّةً جمّع أهلوها الرّفاقا ... وأداروا طلباً فى طلب
فرَضُوا الصمت عليها والوفاقا ... وأبوْا إلا بريقَ الذهب

* * *

قل لهم إذ خنقوا فى سرها ... صرخة القلب وآمال الشباب
إن قدرتم فانزعوا من صدرها ... هِبة الحب اقتساراً واغتصاب

* * *

لم تصوغوا قلبها الخافق حتى ... تفرضوا الحب عليها والحبيبا
فدعوها إنما تسمع صوتا ... قاسيا بين حناياها رهيبا

* * *

وهنا تحت ظلال الشجر ... أخذت عيناى فى الليل شبح
نائماً كالهم ملقى الأزُر ... كلما زايله الظل وضح

* * *

هى أى والله عينا وفما ... هى أى والله حسنا وشبابا
قمر أحمى العذارى حَرَما ... طفر الحب بها بابا فبابا

* * *

يا جمالا جُنّ من ظلم الوجود ... بعد أن جُنّ به الكون وهاما
أفأن لم ترض فى الحب قيود ... هكذا يرضى به الأهل مقاما

ومَن أقدر من التيجانى على الإحساس بحب الفتاة ، وهـو الذى جرب آلام الحب وآماله . ومن أقدر منه على السـخط على هؤلاء القوم الذين أغراهم بريق الذهب ، وهو طالما سخط على الذهب وأصحابه ، وعلى التعبير عن ظلم هؤلاء الذين خنقوا صرخة القلب فى سر هذه الفتاة ، وحاولوا أن يغتصبوا من صدرها هبة الحب ، وأن يقفوا فى سبيل حرية القلب ، وهو الذى تغنى بهذه الحرية فى أكثر من موضع من شعره .

وليس أبلغ فى النفس من أن يعرض التيجانى هنا ألوانا من مشاعر متعددة متشابكة : شعور الفتاة التى أحبت وأخلصت فى حبها ، وشعور أهلها الذين فرضوا عليها الصمت ، وأكرهوها على ما لاتحب ، وشـعور الشاعر الذى يعطف على الفتاة ويذود عنها قسوة الظالمين .

ثم لانسى توفيق التيجانى فى تصوير جمـال هذه العذراء الذى كان يحط أنظار الناس بل الكون كله ، ثم قضت قسوة الزمن أن يلقى بجمال هذه الفتاة البريئة رخيصاً فى الطريق ، فى جنح الظلام ، تحت ظلال الشجر ، تتقحمها عيون المارة وهى ملقاة كالهم الجاثم على الصـدر ، وثيابها على الأرض تتناوب جسدها الظلال والأضواء ، فتبدو حيناً وتختفى حينا ، وما كان أشد دهشة الشاعر حين رأى هذا الجمال فى هـذه الهيئة ، فجعل يتفرس فى أجزاء جسدها ، وقسمات وجهها ، لا يكاد يصدق أنها هى ، وأخيراً يقتنع :

هى أى والله عيناً وفماً هى أى والله حسناً وجمالا

(٢) الجمال الالهى

الحب ووحـدة الوجـود

سبق أن قررنا أن صدق التجانى فى حبه هـذه الفتاة النصرانية ، قد هيأ له أن يحب مكان عبادتها ، وعقيدتها ، وكلّ عين فى الدنيا تذكّره بعينيها ، وكل جمال فى الدنيا محبوب من أجلها أو قبس من جمالها .

ولا شك أن هذا الحب — ولا يستغربن القارىء ذلك — كان من البواعث التى قوت من إيمان التيجانى بالله ، وبالتسليم بقدرة (صانع الجمال) .

ولا يبعد أن يكون التجانى قد حدث نفسه أن صانع الجمال لابد أن يكون جميلا ، أو أن يحب صانع الجمال ، لأنه استطاع بقدرته أن يصوغ صور الجمال فى الأرض ، وأن يصنع بنوع خاص صورة هذه الحبيبة أو تلك من حبيباته الحسان .

ومن ثم اشتد تعلق التيجانى بالله ، وجعل يسلك فى حبه طريقه الأول .

فاذا كان التيجانى قد أحب كل ما يتعلق بفتاته فى هذه الأرض ، فهو هنا يحب على هـذا المنوال ، كل ما يتعلق بالإله فى الأرض والسماء ، ولكن ما يتعلق بفتاته ، مهما يبلغ ، لا يعدو شيئاً قليلا بالنسبة إلى ما يملكه الإله الأعظم سبحانه . كل شىء فى الوجود متعلق بوجوده سبحانه . فليس الجمال هنا مختصاً بكنيسة أو عقيدة ، أو عرض من أعراض الحياة ينسحب حب الشاعر عليه ، بل الجمال هنا يعم الأرض والسماء جميعاً . لقد كانت الأشياء المحبوبة من أجل فتاته محدودة معدودة ، أما الآن فقد اتسعت

(منطقة الأشياء المحبوبة) من أجل الله ، فشملت كل شيء في العالم الأرضي وفيما وراءه من العالمين .

وكذلك ذهب التيجاني (مذهب وحدة الوجود) الذي عرفه الصوفية من قديم ، وهو مذهب يعتنقه كثير منهم ، لكن لا يفطن إلى حقيقته إلا من وصل في حبه إلى الذروة . فلا شك أن فريقاً من هؤلاء الصوفية لم يتح له أن يفهم هذا المذهب حق الفهم ، بل جاروا فيه العرف والتقليد ، ولم يكلفوا أنفسهم تعمقه والتغلغل الى باطنه ، أو لم يتح لهم تجربة من تجارب الحب البشري قبل أن يعتنقوا هذا المذهب . هذا الفريق تلقى مذهبه من الخارج ، ولم يتلقوه من صرخات قلوبهم ، وهمسات أفئدتهم . أما الذين أحبوا حباً بشرياً ، ثم انصرفوا ، لسبب ما ، إلى هذا الحب الإلهي الأسمى ، فهؤلاء قد فهموا المذهب وتعمقوه . أحبوا المحبوب الأسمى ، سبحانه ، حباً عنيفاً ، قوياً ، على نحو سلوكهم في حب الجمال البشري[1] . هؤلاء فعلوا ما فعله الأرضيون في حبهم ففزعوا إلى أحلامهم

---

(١) الراجح أن أول من استعمل فكرة الحب الإلهي في أوساط الصوفية ، السيدة رابعة العدوية التي توفيت سنة ١٨٥ هـ . يقول فيها الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا انها هي أول من هتف في رياض الصوفية بنغمات الحب شعرا ونثرا (دائرة المعارف الاسلامية . الترجمة العربية مادة تصوف) ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي إن السيدة رابعة العدوية (كانت عازفة على الناي ، تشارك في شهوات الجسد بكل فورتها وعرامتها . . . ولما أن بدأت التوبة كان عليها وهي الخارجة من دنيا الشهوات ، أن تدخل عنصر العاطفة الغرامية الحارة ، لهذا فنحن نفترض أن عنصر الحب بمعناه الحسي مرفوعا إلى الالوهية ، قد أدخلته رابعة في حياتها الروحية نتيجة لفترة الضلال واللهو الآثم التي مرت بها ... ومن الأقوال التي تخلفت لنا : (حكى =

وغاصوا فى بحار التصور ، حتى قويت مخيلتهم ، واشتدت حساستهم نحو الإله المحبوب ، فأحبوا كل ما يتعلق بالإله ، وعشقوا كل ما له صلة بالخالق ، وأىُّ شىء لا علاقة له ، سبحانه ، به ؟

ثم وصلوا إلى ما وصل إليه صوفية الجمال البشرى ، فأصبحوا إذا نظروا إلى أى شىء تصوروا فيه قبساً من المحبوب أو صورة منه . كل شىء فى الوجود مظهر من مظاهر الله سبحانه ، من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وأديان وأجناس . ولقد عبر أبو يزيد البسطامى والحلاج وغيرهما عن ذلك الشعور أو عن ذلك الحب فى شطحاتهم المعروفة (ما فى الجبة إلا الله) و (سبحانى ما أعظم شأنى) وقول الحلاج :

مزجت روحك فى روحى كما ... تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسَّـــك شىء مسنى ... فإذا أنت أنا فى كل حال

ويروى أن ابن الفارض الصوفى المصرى عشق جملا لسقاء كان يبكر بالوقوف فى الطريق الذى يمر فيه ليتلذذ رؤيته ، وكان يعشق بزنية فى حانوت عطار ، يذهب إليها كل يوم ليتمتع بمشاهدتها . ذلك أنه رأى

= عن رابعة العدوية رحمها الله تعالى أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها ، وشدت عليها درعها ، وخمارها ، ثم قالت : (إلهى ! انارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك !) (شهيدة العشق الإلهى ص ٢٣)

ثم انتشرت فكرة الحب بين الصوفية وانتشرت مخاطبة الذات الإلهية على نحو تغزل الشعراء فى أحبابهم من البشر ، ومن ذلك قول ابن الفارض يخاطب الذات الإلهية :

يحشر العاشقون تحت لوائى ... وجميع الملاح تحت لواكا

فى هذا الجمل وفى تلك البرنية ، ما رآه الحلاج فى نفسه وفيما تشتمل عليه الجبة ، مظاهر مختلفة من المعشوق الأوحد سبحانه . أليس هذا الجمل وهذه البرنية ، وهذه النفس أشياء تتعلق بالله . فهى إذن جديرة بأن تحب ، بل هى جديرة بأن تكون صوراً مختلفة من هذا المحبوب . ولقد حكى السراج فى لمعه عن مجنون ليلى قولا يشبه هذه الوحدة ، ولكنها وحدة خاصة بالجمال البشرى قال :

« كان المجنون إذا نظر إلى الوحش يقول : ليلى . وإن نظر إلى الجبال يقول : ليلى . وإن نظر إلى الناس يقول : ليلى ، حتى إذا قيل له ما اسمك وما حالك يقول : ليلى » .

ولا ينبغى أن ننظر إلى قول المجنون على أنه هذيان وتخليط لا أكثر . بل ينبغى أن ننظر إلى هذا القول على أنه مرحلة يصل إليها المحب الذى بلغ فى حبه الذروة ، حيث تختلط عنده الأشياء التى يراها ويسمعها ويحسها ، لأن كل شىء عنده جميل ولديه محبب ، كلها عنده كليلى محبوبته ، بل هى ليلى نفسها كذلك وصل أصحاب وحدة الوجود من الصوفية إلى أن الأديان والأجناس كلها مظاهر مختلفة لذات واحدة . إنما هو الحب الذى ألف بين المتفرقات ، وجمع بين المتنافرات ، ومن أجل المحبوب أحبوا كل شىء ، ثم اعتقدوا من فرط حبهم ، أنه كل شىء .

وأغلب الظن أن إيمان التيجانى بوحدة الوجود قد جاءه عن حب صادق لله ، أدى به إلى هذا المذهب ، دفعه إليه الباطن وأملته عليه التجربة ، فلقد ذاق التيجانى تصوف الجمال البشرى ، وعرف فيه بعض

ملامح هذا المذهب ، أو بعبارة أخرى ، عرف هذا المذهب فى صورة ضيقة ، ثم أخذ يطبقه بصورة أوسع فى حبه لله . وفى قصيدتيه (الله) (والصوفى المعذب) أمثلة واضحة على إيمانه بهذه الوحدة . يقول فى قصيدة (الله) :

قيل لى عنه فى الزمان وحدثت به فى سريرة الآناء
إنه النور خافقاً فى جبين الفجر والليل دافقاً فى الماء
صفه رعداً مجلجلا فى السموات وصوتاً مدوياً فى الفضاء
أو هدوءً أو رقةً أو هواءً أو صدى للعواصف الهوجاء
هو إن شئت محض نار ونور وهو إن شئت محض برد وماء
نحن مجلى علاه فى كل دانٍ من مرائى الوجود أو كل ناء

فالتيجانى يصرح هنا بأنه لم يعرف الله بالسماع أو التقليد وحده ، بل عرفه بالتجربة ، عرفه بعد أن تتبع الوجود ، وتأمل محاسن الطبيعة ، ومفاتن الجمال البشرى ، وقدرة العقل ، وتكون الجنين من النطفة ، وغير ذلك من أسرار الوجود ، فإذا بكل شىء ناطق بأن الله ، موجود ، قادر ، ولكن حب التيجانى لله قد أدى به إلى القول بأن الله ليس شيئاً منفصلا عن الوجود ، بل هو يتمثل فى الموجودات كلها ، صغيرها وكبيرها ، حقيرها وعظيمها ، محسوسها ومعنويها ، يتمثل فى النور والنار والليل والرعد والهدوء والرقة والهواء والبرد والماء ، بل يتمثل فى نفوسنا :

نحن مجلى علاه فى كل دانٍ من مرائى الوجود أو كل ناء

ونحن جميعا مظاهر مختلفة المحبوب سبحانه ، فالله فى كل قريب وفى كل بعيد من مظاهر الوجود . ويزيدنا التيجانى توضيحا لمذهبه فى أبيات من قصيدة الصوفى المعذب :

كل ما فى الكون يمشى فى حناياه الإله
هذه النملة فى رقتهـــا رجع صداه
هو يحيا فى حواشيها وتحيا فى ثراه

ثم ينظر إلى الأديان كلها نظرة تسامح ومحبة وإخاء ، ويعجب من هؤلاء المسلمين الذين يحقدون على أصحاب البيع من النصارى ، ومن هؤلاء الذين يتعصبون لدينهم ، ويثورون لمجد كنيستهم ، ولو أنهم نظروا إلى الأديان نظرة واسعة ، سامية ، فاحصة ، وتغلغلوا إلى حقيقة الوجود ، ولمسوا بأيديهم سر الكون ، لنظروا إلى الأديان جميعاً نظرة حب وعطف وتقدير ، فكلها فى الأرض مشاعل هدى ، وبواعث خير ، ورسالات سلام ومحبة ، ولعلموا أن بنت وهب ، شقيقة لمريم العذراء :

ها هنا مسجد مفيظ على ذى البِـــــيَع الطهرُ ، والمسوح الوضاءِ
وهنا راهب من القوم ثوّا ر لمجد الكنيسة الزهراء
كلها فى الثرى دوافع خير بنت وهب شقيقة العذراء (١)

---

(١) تتمثل هذه النظرة إلى الأديان عند الصوفية القدماء كمحيى الدين بن عربى والحلاج ولابن عربى فى ذلك شعر قال :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

حيرة العقل

ولكن الإنسان لا يتألف من قلب فحسب، بل له عقل أيضا، ولكل وظيفته (ودائرة اختصاصه) : القلب يحب ويكره ، ويرضى ويسخط ، ويفرح ويحزن ، وينقبض وينبسط ، وينزعج ويطمئن ، والعقل ينفى ويثبت ، ويبحث ويجادل ، ويفهم ويميّز ، ويحدّد ويقسم . والناس ، من قديم متنازعون فيما بينهم فى أى السبيلين أفضل فى معرفة الله : أأن يظل المرء متطلعا إلى الله بقلبه ، حتى يحبه ، ويطمئن إليه ، ويريح الناس من الجدل والقياس والتحديد والتقسيم ويستريح هو من نزوات العقل وتعمق التفكر واستدعاء الأدلة والبراهين أم أن يظل باحثا عن الله بعقله ، محاولا إثبات عقيدته بالدليل والبرهان ؟

والعقل يفترق عن القلب افتراق السبيلين المختلفتين الى الغاية الواحدة ، غير أن العقل أقدر من القلب على البرهنة ، كما يتميز عنه بأنه قادر على النفى والإثبات فى الشىء الواحد . ولا تكاد تجد قضية من القضايا تطرح أمام العقل إلا وفى مقدوره أن يجمع لها شهود نفى وشهود إثبات . وهذه طبيعة العقل . ومن هنا يرد الشك كثيرا على الباحثين . وشاعرنا التيجانى قد آمن بالله إيمانا قلبيا صوفيا ، آمن بالله بعد أن أحبه بقلبه ، وصدق فى حبه . ولو أنه وقف عند هذا الإيمان لأراح واستراح .

ولكنه ككل إنسان له عقل ينازع القلب وظيفته هذه ، بل ما كان لشاب كالتيجانى ، مولع بالقراءة ، ميال إلى توسيع مداركه أن يغالب تعطش عقله إلى البحث ، وأن يهمل نصيب عقله فى تفهم كل شىء حتى العقيدة .

وللتيجانى أبيات عدة يمجد فيها العقل ويشيد بقدرته العجيبة ، ويسأل الله : من أين صاغت كفك هذا الطلسم الخفى المسمى بالعقل .

رب هبنى رضاك من أين صـــــاغت كفك الطلسم الخفى المستر
المسمى بالعقل عندك فى الآ زال من ميّسر الحياة وسيطر

وعبارته (رب هبنى رضاك) تنطوى على اعتذار جميل الى الله لتجرؤ التيجانى على هذا السؤال ، وفيها كذلك ما ينم على إيمان صادق .

ولكن هذا العقل الذى يمجده التيجانى ، ويمجد الله من أجله ، وبما شرد به عن القافلة ، فضاق بشراده ذرعا وامتلأ قلبه غيظا وسخطا ، فتحس فى عباراته قوة تتفجر من جوانب نفسه :

أيها العقل أنت ياحيرة العقـــــل ولما تكن بنفسك أجدر
يا قُوَى تهدم الحياة وتبنـ يها وتذرو الورى هباء وعثير
أ إله فى الأرض أنت أم الشيـ طان ينهى فى العالمين ويأمر
وجنون أم أنت عقل وموجود حقيق أم أنت وهم مصور

ويح هذا العقل ! لقد جره إلى ما كان يخشاه ! فقد ودع أمس يقينه ! ورمى به فى مهمه قفر ، بعيد الأطراف ، تعصف فيه الرياح الهوج ، فلا بد أنها قد اجترفت يقينه فيما اجترفت ، وذهبت به الى مكان بعيد بعيد لا نهاية لبعده . لهذا فهو يعيش بلا إيمان . بلا يقين ، انطفأت مصابيح اليقين من قلبه ، وفُسر إيمانه الى غير رجعة : تأمل معى الأبيات الآتية ، كيف نفس الشاعر عن كربته فى وزن منبسط وقافية منبسطة . وليس أجدر لمن يتنفس الصعداء ، ويصعد الزفرات ، بعد كدٍ طويل وجهد مضن ، من وزن طويل يستروح من خلاله ، ويرسل فى أثنائه

أنفاسا مديدة ، ومن قافية ذات مقطع مفتوح يمتد فى خلاله النَّفَس كما فى قوله (ريح) ، مصا (يبح) ، تبا (ريح) .

ودعت أمس يقينى فى موداة ... غبراء تعصف فى أعماقها الريح
تكسرت شمس دنيا القلب وانطفأت ... فى عالم الروح من نفسى المصابيح
ويحى وويح الهدى المقبور ليس له ... رجعى وقد أوغلت فىَّ التباريح

مسكين هذا الشاعر ! لقد أوغلت فيه التباريح ، وأفلت يقينه من يده على رغمه ، وجاهد كثيراً ليحتفظ به ، ولكن أتظن أن الشاعر قد ودع يقينه إلى الأبد كما يقول ؟ لا نظن . إنما هى نفثة مصدور ومبالغة شاعر قد ضاق بحيرته ذرعا .

فها هو ذا الشاعر ، يضرب ناقته الشرود ، لعلها تنحاز إلى قافلة عشيرته ، وها هو ذا يتألم لشكه فيبحث عن برد اليقين فى كد وجهد ، بعد أن خدعته الشكوك وغررت به :

ما كنت أوثر فى دينى وتوحيدى ... خوادع الآل عن زادى وموردى
غرون بى وبحسبى أن راويتى ... ملأى هريقت على ظمأى من البيد
أفرغتها وبرغمى أنها انحدرت ... بيضاء كالروح فى سوداء صيخود
أشك يؤلمنى شكى وأبحث عن ... برد اليقين فيفنى فيه مجهودى

وأحب هنا أن أقف عند البيتين الثانى والثالث . وهل يجوز أن نمر عليهما دون أن نعرف ما فيهما من جمال رائع وفن أصيل . هنا يلجأ إلى تجسيم المعنى حتى يقربه إلى الأفهام ، هذه العقيدة الزاخرة بالإيمان كالراوية التى تشفى غلة الصادى تلك العقيدة التى تشفى حاجة البشرية إلى الاستقرار والطمأنينة والتطلع إلى المجهول . هذه العقيدة قد تزعزعت بالشك وهريق

ماؤها على بقعة ظمأى من الصحراء ، ضاعت فلا أمل له فى الرجوع إليها ، لقد أفرغها فى هذه البقعة السحيقة المتعطشة إلى الماء فابتلعتها ، وكانت عقيدة نقية طاهرة كالماء الزلال أو كالروح ، ولكنها الآن تسربت فى بقاع سوداء مخيفة بها شره إلى الماء الزلال إذ أنها صيخود ، شديدة الحر .

ثم لا ننسى إلى جانب هذا التجسيم الرائع ، ما يتخلل البيتين السابقين من موسيقى لفظية نشأت من الجمع بين ملأى ، وظمأى وبين بحسى فى البيت الأول وبرغمى فى البيت الثانى ، وبين بيضاء وسوداء . ونشأت من محاكاة المعنى لجرس الكلمات فى اجتماع الراء والغين فى قوله (أفرغتها وبرغمى) . هذه العقيدة الراوية التى أفرغها فى البيداء بالرغم منه ، قد انتزعت منه انتزاعا ، وخطفت خطفاً ، فهى أشبه بهذا المريض الذى لا يطيق جوفه قدحاً من الماء فيعيده من فمه مضطراً ، ولعلك تحس بهذه الصورة متمثلة فى جرس الغين والراء مجتمعين - رغ رغ رغ - ثم فى قوله صيخود هذه البقعة شديدة الحر ، الكريهة إلى نفسه كراهة اجتماع الصاد والخاء فى هذه الكلمة .

فالشاعر مؤمن فى سريرة نفسه إيماناً صادقا ، فإذا اضطره العقل إلى الشك ، ضاق بعقله وبنفسه ذرعا ، وتمنى أن تزول شكوكه ، وأن يرجع إلى إيمانه . وهى فترات تعترى عادة من يؤمنون بعقولهم ، أما الذين يؤمنون بقلوبهم أو يؤمنون تقليداً ومحاكاة ، فهؤلاء لا مجال لأن يشكوا ولا يتسرب إلى عقيدتهم ريبة . والشك عند الباحثين أمر من طبيعة العقل كما قلنا ، وقديما شك حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فترة من فترات حياته ، ثم رجع إلى حظيرة الإيمان .

والظاهر أن بعض المؤمنين السطحيين طعنوا فى عقيدة التيجانى ،

وعابوا عليه شكه ، وله فى ذلك أبيات من قصيدة يمدح فيها المعهد العلمى الذى تعلم فيه بأم درمان . وكان بعض زملائه بالمعهد قد رموه بالكفر وطعنوه فى دينه .

قالوا وأرجفت النفوس وأوجفت هلعا وهاج وماج قسطور غابه
كفر ابن يوسف من شقّ واعتدى وبغى ... ولست بعابئ أو آبه
قالوا احرقوه بل اصلبوه بل انسفوا للريح ناجس عظمه وإهابه

وهذا داء قديم عند العامة ، وقديماً رموا عباقرة الفكر بالكفر والإلحاد والزندقة . وأنا أزعم أن الذين يرمون الناس بهذه التهم جزافا إنما يظلمون أنفسهم وأوطانهم ودينهم بما يصنعون ؛ وإذا كان لهؤلاء الطاعنين عبرة فى التاريخ وإيمان به ، فان التاريخ قد أثبت أن هذه التهم الباطلة ليست إلا إيذناً بفتح أبواب المجد على مصاريعها لهؤلاء المتهمين ليسيروا فى طريقهم قدماً يحملون مشاعل النهضات إلى الأمم والشعوب. كأن الحياة تصرخ فى وجوه هؤلاء الطاعنين بأنها أقوى من هذه التهم وأعظم من تلك المطاعن .

ومهما يكن فليس التيجانى (أول كوكب نفس الزمان عليه فضل شهابه) كما يقول : ولقد بدأت آثار التيجانى تشق طريقها إلى المجد ، وأحس السودانيون والمصريون بنبوغه وشاعريته ، واعترفت مصر بذلك فى مهرجان أقامته إحياء لذكراه عام ١٩٤٦ .

وغريب أن يرمى التيجانى بهذه التهمة ، وقد عاش يمجد الله كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، وعاش ماعاش للناس لا لنفسه ، رثى لبؤس الناس حتى كاد يبكى من أجلهم دما ، وتعاطف مع المجتمع الذى يعيش فيه حتى كاد

يذوب عطفاً عليه ، وحنيناً اليه ، وعلم الناس كيف يسمون بحبهم إلى الروح الخالصة التى لا يشوبها الجسد ، وعلم الناس كيف ينظرون إلى ماوراء الكون ، وفتح للناس بطريقته فى الشعر بابا لعله كان جديداً كل الجدة على شعراء السودان . وأخيراً يرمى بالكفر ، ويقال احرقوه أو اصلبوه أو انسفوا للريح جثته النجسة . ثم لايكون جوابه على هؤلاء الطاعنين إلا ذلك العتاب الرقيق الرفيق الذى يوجهه إلى شباب المعهد .

هو معهدى ، ولئن حفظت صنيعه ... فأنا ابن سرحته الذى غنى به
مازلت أكبر فى الشباب وأغتدى ... وأروح بين نخ ويا مرحى به
حتى رميت ولست أول كوكب ... نفس الزمان عليه فضل شهابه

(٣) جمال الطبيعة

وحب التيجانى لمظاهر الطبيعة شىء واضح كل الوضوح فى شعره . كانت الطبيعة مجال تأملاته ومحط سلواه . وكما أن عاطفة الحب البشرى تنشأ فى النفس بالألفة والعناية ، وطول التأمل فى المحاسن ، فكذلك تنشأ عاطفة حب الطبيعة ، فى النفس من طول تأمل المرء فى مظاهرها والاطمئنان اليها ، والتماس الراحة عندها ، والتعلق بها يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . فلا تلبث أن تتولد فى نفس المرء الألفة ، ويشعر نحو الطبيعة بالحب . هذا إذا كان المرء من أصحاب الإحساس المرهف بالجمال ؛ ويؤسفنى أن أقول إن كثيراً جداً منا لم يؤت بعدُ هذا الإحساس ، وهو موهبة تتغذى بالعلم ، ولاشك أن ماقاله الدكتور مندور فى هذا الشأن صحيح إلى حد كبير : (إن شعبنا لايفطن إلى شىء اسمه جمال فى شجرة أو نهر ، فى فجر أو غسق ، وإنما يعرف ذلك من سمع منا أو تعلم أن هناك

شيئا بهذا الاسم ، وأن الله لم يخلق الأشياء لما فيها من نفع مادى للانسان فحسب ، بل خلقها لمعان روحية . سل مثلا فلاحا عن جمال شيء ، تحس لساعتك أنك تخاطبه عن أمر خلا منه ذهنه على الإطلاق ! وليس لذلك سبب غير الجهل ، فالإحساس بالجمال ذاته لابد أن يوقظه العلم) .(١)

فاذا أتيح للمرء حساسية مرهفة بالجمال ، وتعلق بمظاهر الطبيعة ، عامل المرء هذه المظاهر معاملة الكائن الحى ، فنظر اليها نظر الأليف إلى الأليف ، والمحب إلى الحبيب ، وتغزل فى الطبيعة كلما اجتلى محاسن منها ، وعاتبها إذا بدر منها شيء ، وخاطبها كأن لها من التفكير والإحساس ما للمحبوب الحى . وهذا نحس به عند هذا المحب القديم الذى سمع أن حبيبته سكنت فترة من الزمن عند جبل التوباد ، فتعلق المحب بالجبل ، وأحبه ، وما كاد يراه حتى أجهش بالبكاء ، وقد خيّل إليه أن الجبل يكلمه ويراه ، ويشفق على حالته ، وأنه ما كاد يرمقه حتى كبر للرحمن ، إنكاراً لما صار اليه المحبّ ، واشفاقا عليه .

وأجهشت للتوباد حين رأيته وكبّر للرحمن حين رآنى

ومثل هذا البيت الذى ينظر إلى مظاهر الطبيعة كأنها أم رؤوم ، أو كأنها مخلوقات حبيبة ، أوكائنات قريبة إلى القلب ، قليل فى الشعر العربى .

النيـــل : أما التيجانى فقد أحس بجمال الطبيعة ، وأحبها ، وأوجد بينها وبين نفسه صلة روحية . تغنى بجمال النيل ، وحسبك أن تتصفح قصيدته (فى محراب النيل) ففيها (يتغزل) الشاعر فى هذا النهر ، كما يتغزل فى أحبائه من البشر ، تراه يعدد محاسن النيل ويتحدث عن جماله بصفات

(١) فى الميزان الجديد ص ٨٧ .

يستعيرها من صفات إنسان حى . فالنيل عنده من ذرية الفراديس ، يفيض الجلال من نسبه ، كريم المحتد ، حضنته الملائكة ، ورفت عليه بأجنحة خضر ، له رضاب كرضاب الحسناء ، تحدر فى الزمان ، وأفرغه على الشرق ، وله أحضان فسيحة تضم تاريخ الزمان كله ، وله كفان رحيبتان :

أنت يانيل ياسلسبيل الفراديس نبيل موفق فى مسابك
ملء أوفاضك الجلال ، فمرحى بالجلال المفيض من أنسابك
حضنتك الأملاك فى جنة الخلد ورفّت على وضىء عبابك
وأمدت عليك أجنحةً خضراً وأضفت ثيابها فى رحابك
فتحدرت فى الزمان وأفرغـــت على الشرق جنة من رضابك
بين أحضانك العراض وفى كفيـــك تاريخه وتحت ثيابك

أليست هذه الأبيات ناطقة بأن شاعرنا ينظر إلى النيل كأنه شخص يدب بروحه ، وكائن حى يعيش فى عالم اللحم والدم ؟

ولا تعجب أن ينظر التيجانى إلى الجماد نظرته إلى الكائن الحى ، ويتغزل فى الجماد كما يتغزل فى الحبيب الحى . فلعل هذا الاتجاه ، هو المقياس الصحيح للشعر الجيد . وإذا أردت أن تعرف مدى عمق الشاعر وصدق شاعريته ، فانظر إلى أى مدى ينسحب غزله على الجماد ، وكلما أمعن الشاعر فى التغزل بالجماد كأنه حى ناطق ، كان أقرب إلى المذهب الصحيح فى الشعر . وما ميزة الشعر الخالد إلا أن يكون غزلا بهذا المعنى أى تغنيا بالجمال فى مظاهره المختلفة .

وقد لاحظ الثعالبى أحد قدماء النقاد (+ ٤٢٩ هـ) هذه الظاهرة

فى شعر المتنبى ، لا فى مظاهر الطبيعة ، ولكن فى من مدحهم ، فعد من محاسن المتنبى أنه (خاطب ممدوحيه من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب) وماذلك إلا لأنه كان حين يمدح ، قادراً على تمثل شعور الإخلاص العميق للممدوح ، ذلك الإخلاص الذى كان يطبع مدح المتنبى بطابع الغزل (١)

ونعود إلى حديث التيجانى عن النيل ، فهو لم ينته بعد ، فقد أحب التيجانى منظر الزوارق التى تتهادى على صفحته ذاهبة جائية ، تحمل الأحباء ، وقد خلصوا لأنفسهم فى فضاء واسع ، بين أمواج هادئة ، يتناجون على انفراد ، بعيدين عن أعين الرقباء . وهنا يبدع التيجانى فى مزج الجمالين ، جمال الطبيعة ، والجمال البشرى :

يانيل لم تحبس لإنسان ... يخفق فى جنبيك قلبان
فى زورق إخضر مستبشر ... مبارك الصبوة ريان
مشى بأيار على زهوه ... وطوّق اللجّ بنيسان
كقبلة سكرى سماوية ... تهبط فى وجنة نشوان

ولا أحب أن أقف كثيراً عند قول الشاعر أيار ونيسان ، وهما من أسماء

---

(١) يقول الثعالبى ج ١/١٦٣ يتيمة الدهر ط الصاوى (وهو مذهب تفرد به [المتنبى] واستكثر من سلوكه) وضرب أمثلة عدة ، منها قول المتنبى لعضد الدولة :

أروح وقد ختمت على فؤادى ... بحبك أن يحل به سواكا

وكقوله لسيف الدولة :

مالى أكتّم حبا قد برى جسدى ... وتدعى حب سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حب لغرته ... فليت أنا بقدر الحب نقتسم
يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

. وانظر تفسيراً لهذه الظاهرة كذلك فى الميزان الجديد للدكتور مندور ٨٢ ـ ٨٤

شهور غريبة على السودان فيما نظن . تستعمل الآن فى بعض بلاد العالم الاسلامى كسوريا والعراق ، وهو استعمال فى غير موضعه بالنسبة للتيجانى فقد كان فى مقدوره أن يذكر بدلا منها أسماء الأشهر التى يعرفها قومه(١). وهذا إن دل على شيء فهو يدل على تأثر التيجانى بشعر أهل الشام تأثراً واضحاً ، ثم نقف فى هذه الأبيات عند قوله (فى زورق أخضر مستبشر) ونربط بين وصف الزورق الأخضر بالبركة والبشرى وبين قول التيجانى فى قصيدة النيل السابقة (وأمدت عليك أجنحة خضراً) نشرتها الملائكة على ماء النيل ، وبين هذا الزرع المونق الذى أعجب الشاعر بخضرته فى جزيرة توتى (٢) .

والبهم تمرح والزر ع مونق مخضر

فربما كان من الممكن أن نستنتج أن اللون الأخضر كان محببا إلى الشاعر . وربما كان هذا أثراً من آثار تربيته الدينية التى تعودت أن ترى اللون الأخضر رمزاً للشرف والنسب ، أو أثراً من آثار البيئة التى تعيش على الأمطار ، وتقدس خضرة الأرض حين تهتز ، وتربو ، وتوتى من كل زوج بهيج .

ثم لنستمع إلى مقطوعة أخرى ، موضوعها زورق فى النيل كان يقل فى هذه المرة شاعرنا نفسه ، وكادت الأمواج تبتلع الزورق والشاعر ولكنه نجا من الهلاك ، ثم أراد أن يعاتب النيل على ما حدث ، وبينهما ألفة قديمة ، فجعل يعاتبه كما يعاتب أحباءه من البشر ، ليس عتاب حاقد

---

(١) ذكر الشاعر اسم أيار أيضا فى صفحة ٤٤ من الديوان ولكنه فى بعض قصائده يذكر أسماء الشهور العربية صفحة ٤٤ ، ٤٥ من الديوان .

(٢) راجع ص٢٩ فقد ذكر فيها الخضرة مرتين ، ٥٦ (غننا السحر من شواطئه الخضر)

أو غاضب أو عدو ولكنه عتاب رقيق رفيق ينم على إخلاص عميق وألفة عريقة .

هيك ابتلعت الزورق الوادعا ... في موجة منك فمن يبلعك
وهيك أدبرت به راجعا ... لشط يا نيل فما يمنعك
أو هيك أطعمت به جائعا ... في جوفك الضخم فهل يشبعك
رفقا به ! واستبقه يانعا ... إن ضمنت أضلعه أضلعك

ولعلك تحس روح الدعابة يتخلل هذا العتاب كما تحس بالألفة التي لمسناها في قصيدته السابقة . والشاعر هنا يقارن بين نفسه وبين هذا النيل الهائل الذي لا حد لسعته وغوره ، فيتضاءل الشاعر أمامه ، ويحس أنه كالعدم بالنسبة إليه ، ولكنه لا يرهبه ولا يخشاه ، بل يعاتبه في دعابة ورقة : لقد كان الزورق ماضيا لسبيله في الماء ، وهو شيء ضئيل جداً بالنسبة إليك ، فلو أنك ابتلعته في إحدى موجاتك ، فهل تنتظر منا انتقاما ؛ لن نفعل معك شيئا لأننا لا نقدر عليك ؛ وما كان شيء يمانع إياك من أن تحمل الزورق إلى هذا الشط أو ذاك . وماذا كنت تصنع بجسدي وبهذا الزورق ، وليس مثلك من يحرص على التهام مثلي ؛ أنت ذو جوف ضخم تحمل في خضمك الواسع خلقاً كثيرا من الأحياء وغير الأحياء ، فما كنت بالذي يسد منك الرمق ولا رمق مخلوق ضئيل من مخلوقاتك الجائعة ، فاذا أقلني زورق أيها النيل ، مرة أخرى ، فارفق بي ، إن لي شبابا أود أن تصونه غضا يانعا :

الطبيعة مادة لخياله

ويتجلى حب التيجاني لمظاهر الطبيعة في مادة الخيال التي يعبر بها عن خلجات نفسه ومعانيه . فهو كثيراً ما يتخذ من الأزهار ، والألحان ،

والأنوار ، والألوان وغير ذلك من محاسن الطبيعة مادة لخياله . اقرأ مثلا قصيدة (مدينة الخرطوم) وسعرض لها بعد ، ثم اقرأ الأبيات الآتية التى وصف فيها حبيبته وقد توارت خلف زجاج نافذة فى منزلها . وتطلعت إلى الشاعر :

أفتلك نافذة الفناء وهذه الشـــــرفات أم هى عالم من نور

وهناك أنت أم الجلال أم الهوى صورا ملونة على بلور

فالموضوع هنا (غزل بالجمال البشرى) ولكنه استعار الماء والنور والسحر والبلور والفيض ، للتعبير عن مكنون إعجابه بالحبيب الذى استتر وراء زجاج النافذة . ولقد أولع التيجانى بالصور المشرقة اللامعة فى شعره ، ولا سيما الأبيض منها ، فعشق من النيل (عبابه الوضىء) ، عشق النور والبلور والماس ، ويصف ذؤابتين من شعر حبيبته بقوله :

هبه صيغت ذؤابتاه من الما س وجيد ولثاه من بلوره

وعشق الفجر ووضحه ، والضحى وإشراقه ، وسمى ديوانه إشراقة وأكثر من ترديد هذه الكلمة فى شعره [1] وهذه من الظواهر التى تدع علماء النفس يفسرونها كما يلذ لهم .

توق والخرطوم :

وشعر التيجانى يوضح إلى حد ما هذا الاتجاه الفنى الصحيح فى نظم الشعر الوطنى ، التيجانى فى أكثر شعره صادق الشعور ، أحس إحساسا عميقا مخلصا وسرد للناس تفاصيل إحساسه . أحب التيجانى وطنه فى

---

(١) وراجع كذلك ص ١ من الديوان قوله (بيض اللآلىء) وقوله ص ١٢ وقام بين الرمان البيض .

عمق ، فسرد لنا قصة شعوره بحب الوطن . اقرأ قصيدته (توتى فى الصباح) ، وتوتى جزيرة جميلة فى وطن الشاعر ، أحس بجمالها فأحبها . ولم يشأ أن يفعل ما فعله السطحيون من الشعراء ، لم يرفع عقيرته بالصيحات الفارغة ، والدعوات الجوف. لم يقل مثلا : إن هذه الجزيرة ينبغى أن تحب ، وهى نموذج الجزر ، ونحن فداؤها بل آثر أن تكون دعوة مدعمة بالأسانيد الروحية ، هى هذه التفاصيل التى نجح فى نقلها إلى نفوسنا . ان توتى جزيرة تتوسط النيل ، ويحف بها الماء ، وتحتويها شواطىء الخرطوم :

يادرة حفها الليـــــل واحتواها البرّ

فاذا طلع الفجر انكشفت معالم الأسرّة ، وانطلقت نغمات المؤذن بين ربا الجزيرة ، وهب النوام من مضاجعهم ، وأحاط بهم ركب من السكراكى .

صحا الديجى وتغشـــــاك فى الأسرة فجر
وصاح بين الربا الغر عبقرى أغر
وطاف حولك ركـــــب من السكراكى أغر

وما أجمل أصوات العصافير الحرة الطليقة ، التى كانت فى المساء قد نامت فى أعشاشها على غصون الشجر . حتى إذا تنفس الصبح أخذت تنفض النوم من عيونها الصغيرة فى وداعة وجمال ، وإذا بالأعشاش تضطرب بالحياة ، وتموج بالحركة ، وتختلط بالأصـــوات ، هبت مبكرة هبوب الراهب المتأهب لعبادة الله . فكأن هذه السقسقة المختلطة الصادرة من العش أجراس صدرت عن الدير إيذاناً باليقظة والتأهب لعبادة الله :

وراح ينفض عينيه من بنى الأيك حر
فـاج بالأيك عش وقام فى العش دير

بل هنالك أصوات مختلطة ، تصدر من الماشية ، والطاحونة ، وهى أبيات تذكرنى ببساطة الشاعر الانجليزى وليم كوپر فى قصيدة وصف فيها الصباح فى يوم من أيام الشتاء ، فوصف الماشية المنزوية فى أركان الحقول ، والحظائر ، والحطاب يسرع الخطى ، والدجاج يختال إلى طعامه. كذلك التيجانى هنا يصور لك أصوات الماشية ، وحركاتها فى المزارع الخضراء المونقة ، وصوت الطاحونة الذى يتجاوب مع أصوات البهائم :

يخور ثور وتثغو شاة وتنهق حمر
والبهم تمرح والزر ع مونق مخضر
تجاوب الطحن واللحـــن والثغاء المسر

وتهب الرياح على الرمال فتجمدها كما يجمد المشط شعر الحسناء :

ترجل الريح ما انها ل من نقا أو تذر

أرأيت كيف استطاع الشاعر أن ينقل اليك قصة شعوره بحب هذه الجزيرة ، ومواطن الجمال التى دفعته اليه ، وما أجدر أن يكون هذا نشيداً وطنياً ، لأن مثل هذا الشعر أنجح فى تحبيب الوطن الى النفوس من تلك الأناشيد التى تدعو إلى الفداء والتضحية . وأذكر أن للشاعر على محمود طه المهندس نشيداً عنوانه (نشيد أفريقى) يصف فيه فارساً وهو فى طريقه إلى وطنه وقد عاد منتصراً تكاد الفرحة تسبقه إلى أهله ، يتغنى فى طريقه بقوته ، ويتمنى أن يرى مضارب أهله ، والعذارى اللاعبات اللائى كان يحمل لهن ذكريات جميلة ، وزوجته الحسناء ، وهى تنتظره على باب كوخه ، وطفله الوحيد الذى سيحمله عند ما يراه على ذراعيه ويناغيه. وهو بذلك يسرد تفاصيل شعوره بحب وطنه ، الأمر الذى جعلنا

نشاركه فى عاطفته ، ونحب معه وطنه كما أحب . وانما نعتبر هذا النوع من الشعر الوطنى أفعل فى نفس القارىء أو السامع من الأناشيد المألوفة لما أشرت اليه سابقاً ، فهو يوحى اليك بطريق غير مباشر ، حب هذا الوطن ، وذلك بأن يوصف ما يحس به هو فى صدق وإخلاص ، غير عانى بالأفكار والاستجابات الحسية المباشرة . ذلك بأنه يعلم ، وكلنا يعلم أن الدعوة المباشرة لا تتعمق عادة النفس الانسانية . إنما الذى يجدى هو الأسلوب الإيحائى الذى ينقل اليك تفاصيل الشعور ، ويدعك تستنتج من تلقاء نفسك ماتحب. والواقع أنك إذا تصفحت الشعر الوطنى الرائع عند شعراء الفرنجة تجده من هذا النوع . ومن الأمثلة المعروفة قصيدة للشاعر دى بلاى يقول فيها :

ويح نفسى ! متى ألمح مداخن بلدتى
وهى تطلق دخانها فى الفضاء ، متى !
متى ألمح حديقة دارى المتواضعة ،
وهى عندى فى مقام ولاية بأسرها أو أعظم
إن داراً بناها أجدادى لهى أحب دار إلى الخ . . .

فهذا الشعر، على بساطته ، يوحى بما يبتغيه المتحمس لوطنه ، ولكنه عن طريق غير مباشر .

أما قصيدة التيجانى (مدينة الخرطوم) فقد ألبسها الشاعر روحاً غير تلك التى تسيطر على قصيدته الأولى (توتى) .

القصيدة الأولى عميقة الشعور، بسيطة ، واضحة التعبير . أما الثانية ، فهما بهرج كثير ، وأخيلة متشابكة ، يغلب فيها التكلف على البساطة ،

والخيال على العاطفة ، والموسيقى الصاخبة على الموسيقى الهادئة . ولا أدرى لماذا ؟ ربما لأنه انتقل إلى مدينة البهرج والحضارة والليالى الصاخبة والحركة المستمرة ، فجاءت قصيدته معبرة عن ذلك كله فى حين نجد القصيدة الأولى تتناسب مع بساطة توتى وهدوئها .

ومهما يكن من أمر فهو يذكرنى فى قصيدته عن الخرطوم بعلى محمود طه ، إذ يستعين فى وصفه لمناظر الطبيعة ومظاهر الحياة فى الخرطوم بالألحان المبهمة ، والشمس الخمرية ، والقمر العازف ، والضفاف السحرية ، وحجرات الذهب ، وسبائك الفضة :

مـــدينة كالزهرة المونقـه ... تنفح بالطيب على قطرهـا
ضفافهـا السحرية المورقـه ... يخفق قلب النيل فى صدرها
تحسبهـــا أغنيـة مطرقـه ... نغمها الحسن على نهرها
مبهمـة ألحانهـــا مطلقه ... رجعها الصيدح من طيرها
وشمسهـا الخمـرية المشرقـه ... تفرغ كأس الضوء فى بدرها

ومع ذلك لا أنكر ما فى هذه الصور المتشابكة من متعة للعين والأذن والأنف والذهن جميعاً ، ولكنى أعتقد أن قصيدة توتى ـ رغم ما فيها من هنات ـ أقرب إلى القلب وأشد تغلغلا فى نفس السامع ، لأنها لغة الروح الهادئة التى لا صخب فيها ، والبساطة الصادقة التى لا تكلف فيها . على أن من الإنصاف أن نشير إلى أبيات من قصيدة الخرطوم نعدها من آياته البينات : عندما يتحدث عن الجمال الحى فى هذه المدينة فيمزج بين حبين : حبه للجمال الحى ، وحبه لجمال الوطن : هذا الجمال البشرى ، عندما يدبر النور ، يشع على الخرطوم بوجوه متألقة ، وشباب غض .

أضاءهـا الفجر فلما غرب ... أضاءهـا بالأنفس الناضرة

ثم ما أروع هذه الصرخة التى يقذف بها من قلب يتحرق شوقا إلى هذا الحسن ، ويتأكل غيرة على ذلك الجمال البرىء :

يا للغرير الحلو من ذا أحب ويا لذاك الظبى من ساوره

وأحب أن أختم شعر التيجانى فى جمال الطبيعة بأبيات رائعة حقاً مزج فيها بين أنواع من الجمال ، وصور فيها ألواناً مختلفة من الحب .

فهذا حب بشرى أقلق شاعرنا ومنعه طعم الراحة ، حتى ليضيق بنفسه التى لا تأخذ نصيبها من النوم إذا أقبل الليل ، والناس يأخذون منه نصيبهم؛ هذا النوم قد أخذه آخذ منى وأعطاه ذوات العيون الجميلة اللائى لا أزال أعطيهن من روحى وقلبى ما شئن فى وقت الصحو :

ويح نفسى تنام من دونها الأنـــفس شوطاً وما تهم بشوط
أخذ النوم من يدى وأعطى أعينا لم أزل من الصحو أعطى

وهذا حب الطبيعة الذى يتمثل فى تلك النجوم التى أنس إليها وهو سهران يتفحصها ، ويمعن فى مراقبتها ومناجاتها ، حتى تأكدت بينهما الألفة ، كما تأكدت الألفة بين المحب وجبل التوباد ، فظل هو والنجم يرتقبان الليل ساعة فساعة ، حتى لمحا بواكير الفجر ، فجعلا يصوغان نور الصباح خيطاً بعد خيط وشعاعا بعد شعاع . وأرسلا الشمس من مركزهما ، كأن الشاعر كان يجاور النجم فى السماء ، وأمر الشاعر الشمس بأن تطلق أشعتها على أسرة قومه ، وترسل حرارتها إلى مضاجعهم ، فتوقظهم :

أنا والنجم ساهران نعد الصبـــح خيطا من الشعاع لخيط
كم صباح نسجته أنا والنجـــم وأرسلت شمسه من محطى
قلت سيرى على أسرة قومى واستمرى على مضاجع رهطى

ثم حب الشاعر العميق لهؤلاء القوم الذين أيقظهم من نومهم . لقد سهر بإزائهم لينامو ا ، ومن أجلهم يصيب إذا طالب بالحق ، ويخطىء إذا غمرته ثورة الشباب :

أنا جـــراءهم سهرت ليستغـــــشوا ومن أجلهم أصيب وأخطى